الفصل التاسع

إخلاء السودان

ووزارة نوبار

عرضت الوزارة على رياض باشا ، فأبى قبولها ، وأقر شريف باشا على موقفه المشرّف ، ثم عرضت على نوبار باشا ، فقبلها ، على قاعدة إخلاء السودان والإذعان « للنصائح الإنجليزية » ، وقابل الخديو توفيق باشا عصر يوم ٨ يناير ، فأصدر إليه أمره بتشكيل الوزارة .

تألفت وزارة نوبار فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ ، وأعضاؤها هم : نوبار باشا للرآسة والحقانية والخارجية ، محمد ثابت باشا للداخلية ، مصطفى فهمى باشا للمالية ، عبد القادر حلمى باشا للحربية والبحرية ، محمود باشا الفلكى للمعارف ، عبد الرحمن رشدى بك (باشا) للأشغال[1] .

وهذه هى وزارة نوبار الثانية[2] ، وكانت أولى الوزارات التى تألفت بعد الاحتلال على أساس التسليم للإنجليز بطلباتهم ، وإقرار تدخلهم ، فلا غرابة أن يكون أول عمل لها هو إخلاء السودان ، وضياع نصف الإمبراطورية المصرية .

ومما يستوقف النظر دخول عبد القادر باشا حلمى فى هذه الوزارة ، وقد كان معروفا عن برنامجها أنه يتضمن إخلاء السودان ، فهل كان مقراً هذا البرنامج ؟ الجواب كلا ، لأن عبد القادر باشا ارتضى الاشتراك فى الوزارة على أساس أن يعهد إليه بوصف كونه وزير الحربية ، وأعرف القواد بشؤون السودان ، تنظيم أمر إنقاذه ، وكان يستطيع لو عهد إليه بهذه المهمة أن يعيد

---

(١) مجموعة الأوامر العالية سنة ١٨٨٤ ص ٤

(٢) وزارته الأولى فى عهد اسماعيل وقد تألفت فى اغسطس سنة ١٨٧٨ وسقطت فى فبراير سنة ١٨٧٩ .

سطوة الحكومة فى أرجائه ، ولكن الحكومة البريطانية أصرت على تكليف غردون بمهمة إخلاء السودان ، لكى تطمئن إلى تنفيذ برنامجها ، وقد تجددت فكرة إرسال عبد القادر باشا حلمى إلى السودان بعد هزيمة الجنرال بيكر باشا فى واقعة التيب الثانية ، التى سيجىء الكلام عنها ، وبعد إخفاق غردون فى مهمته ، ولكن السياسة الإنجليزية عارضت فى إنفاذ عبد القادر باشا ، مهما كانت العواقب ، وجرت الأمور على غير ما توقع ، كما سارت على غير ما أراد حينما كان حكمداراً للسودان .

أصدر نوبار تعليماته بإخلاء السودان فوراً ، وترحيل الموظفين والجاليات الأوروبية والمسيحية من الخرطوم ، وكان عددهم لا يقل عن أحد عشر ألفاً ؛ وسحب الحاميات المصرية من نواحى السودان كافة ، وكان عددها نحو خمس وعشرين ألف مقاتل ، كاملى السلاح والعدة .

وصدر مرسوم فى ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ بتتبع إدارة السودان وملحقاته إلى وزارة الحربية ، بعد أن كانت تابعة لرياسة مجلس الوزراء[١] .

وفى الحق ان إخلاء السودان كان أمراً منكراً ، وعملا خطيراً فى ذاته وعواقبه ، فهو أشد ضربة أصيبت بها مصر بعد الاحتلال الإنجليزى ، بل يكاد يعدل الاحتلال فى خطورته ومضاره ، لأن الانسحاب من السودان معناه ضياع الامبراطورية العظيمة التى ضحت مصر فى سبيل تأسيسها بعشرات الألوف من أبنائها ، وملايين الجنيهات من أموالها ، وجهود عشرات السنين من تاريخها ، وبهذا القرار تخلت الحكومة عن دولة مترامية الأطراف ، وتركتها لقمة سائغة للفوضى ، ثم للاستعمار الانجليزى ، تخلت عن نصف المملكة المصرية ، وما فيه من مدن أسستها على مدى السنين وحصون وثكنات وترسانات ومبان وعمارات ، وجيش يبلغ نحو خمس وعشرين ألف مقاتل ، موزعين فى أرجاء السودان ، قررت إجلاء هذا الجيش ، وأمرته أن يكف عن محاربة الثوار ،

---

(١) مجموعة الأوامر العالية سنة ١٨٨٤ ص ٥

ويدعهم أصحاب الحول والسلطان فى تلك الامبراطورية الكبيرة ، ومع ذلك لم يكن من سبيل إلى جلائه عنها دون أن يستهدف للخطر ، وكان الدفاع عن مواقعه فيها أيسر من الجلاء عنها ، وقد تركته الحكومة وشأنه فى تلك الأصقاع المترامية ، فوقع فريسة فى أيدى الثوار .

وهناك متاجر زاهرة قضى عليها قرار الحكومة بالبوار ؛ وقد أحس تجار الصادرات والواردات من مصر والسودان بما سيلحق متاجرهم من فادح الخسائر والمضار ، فألفوا فى أوائل يناير سنة ١٨٨٤ لجنة للدفاع عن مصالحهم وقدموا مذكرة مسهبة[١] إلى الخديو وإلى نوبار باشا ووكلاء الدول السياسيين ، أبانوا فيها عواقب إخلاء السودان ، ومما ورد فيها أن واردات السودان السنوية تبلغ نحو مليونين من الجنيهات ، وصادراته تعادل هذا القدر ، وأن سكان السودان من المصريين كانوا يبلغون وقتئذ ٥٠٠٠٠ ، منهم ١٥٠٠٠ من المسيحيين ، وأن به من البيوت التجارية نحو ثلاثة آلاف بيت للمصريين ، وألف للأوربيين ، وأن بضائع تبلغ قيمتها نصف مليون جنيه معدة للتصدير إلى السودان لا تزال مودعة فى القاهرة وسواكن ، وقالوا فى مذكرتهم مخاطبين الخديو توفيق باشا : « هل يعقل أن العمل الكبير الذى بدأه جدكم محمد على للدفاع عن كيان مصر ذاتها ، وتابعه خلفاؤه وأكمله أبوكم العظيم اسماعيل باشا لفائدة الحضارة والتقدم والإنسانية ودافعتم عنه سموكم إلى اليوم بإخلاص وشجاعة ، هل يعقل أن مثل هذا العمل ينهار بقرار يصدر على عجل وفى ساعة يأس من الكوارث التى تنتاب البلاد ؟ إن لنا وطيد الثقة فى همة سموكم وصدق نظركم ، ونلتمس منكم أن تستمعوا لاحتجاجنا المقرون بالاحترام لسموكم وأن تأمروا بالاستمرار فى الدفاع عن السودان » .

وقد ذهب هذا النداء عبثاً ، وأصدرت وزارة نوبار قرارها المشئوم بإخلاء السودان ، فكان وصمة عار فى تاريخ مصر ، لأن الدول والحكومات لا تتنازل

---

(١) نشرت فى جريدة البوسفور اجبسيان عدد ١٨ يناير سنة ١٨٨٤

عن أملاكها بهذه السهولة ، ولا بهذا الجبن وهذه الخيانة ، فما بالك بالتنازل عن نصف المملكة المصرية ؟

تنفيذ الجلاء عن السودان

ومهمة غردون باشا

سارت انجلترا بخطوات سريعة جريئة فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى فى السودان ، ويتلخص هذا البرنامج فى ثلاث مراحل :

(١) إكراه مصر على التخلى عن السودان .

(٢) إخلاؤه من الجنود والموظفين المصريين .

(٣) استرداده لصالح انجلترا وحدها .

وقد أفلحت انجلترا فى حمل وزارة نوبار على أن تقرر التخلى عن السودان ، وبذلك تمت المرحلة الأولى ، ثم أسرعت فى اجتياز المرحلة الثانية ، وهى جلاء الجيش المصرى والموظفين المصريين عنه ، لأن الجيش المصرى كان لم يزل يرابط فى المدن والمواقع الحصينة بالسودان ، ولو بقى بها لأمكنه أن يدافع عن تلك المواقع ، ويحافظ على سلطة الحكومة المصرية فى نواحيها ، ولا يلبث مع الزمن أن يسترد السلطة فى الأصقاع التى استفحلت فيها سلطة المهدى ، وقد كان هذا الجيش يبلغ كما أسلفنا نحو خمس وعشرين ألف مقاتل لديهم من الحصون والمعاقل والثكنات والترسانات والبواخر الحربية والذخائر والمدافع ما يجعل منهم قوة لا يستهان بها ، ولا سبيل للمهدى إلى التغلب عليها ، ولكن انجلترا أرادت تقليص ظل السلطة المصرية من السودان ، فبادرت إلى العمل لتنفيذ قرار إخلائه ، ومع أن تنفيذ هذا القرار يخص الحكومة المصرية وحدها ، لأن انجلترا لم تكن تدعى إلى ذلك الحين أن لها حقاً ما فى السودان ، فإنها لم تبال هذه الاعتبارات ، ودبرت فى لندن طريقة إخلائه ، دون أن ترجع ولو من باب الشكل إلى الحكومة المصرية ، وعهدت بمهمة الجلاء عن السودان إلى الجنرال غردون باشا .

ولا اشك أن اختيار غردون باشا لهذه المهمة أمر تكتنفه الأسرار والمتناقضات ، لأنه لم يكن من قبل يرى إخلاء السودان ، بل كان يعده عملا جنونياً يتكاف أكثر مما يقتضيه البقاء فيه والاحتفاظ به ، وقد نشر بهذا المعنى مقالة فى جريدة البول مول جازيت Pall Moll Gazette الإنجليزية(٢) جهر فيها بهذا الرأى ، وأضاف إليه أن إخلاء دار فور وكردفان فكرة يمكن قبولها ، ولكن من الواجب بأية وسيلة المحافظة على الولايات الكائنة شرقى النيل الأبيض وشمالى سنار ، وأن لا خطر البتة يتهدد مصر من ناحية المهدى ، ولا يمكن تسويغ إخلاء السودان بحجة الدفاع عن مصر ، وقال ان بالخرطوم وحدها ستة آلاف جندى ، وان هناك حاميات ترابط فى النواحى المترامية كدارفور وبحر الغزال وخط الاستواء ، وتساءل هل فى العزم تضحية هذه القوات بإخلاء السودان ، وكيف السبيل إلى جلائها دون أن تتعرض إلى المهالك ، وختم مقاله بوجوب الدفاع عن الخرطوم ، فإن قوات المهدى لا يمكن أن تبقى لمدة طويلة ، وأنها ستتلاشى من نفسها ، أما إذا أخلى السودان ، فإن هذا العمل سيكون ضربة هائلة تصيب سلامة مصر ، وقد تصيب سلام العالم .

هذا ما جهر به غردون فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ ، على أنه لم يلبث بعد أيام معدودات (فى ١٨ يناير) أن تلقى من مجلس الوزراء البريطانى مهمة تنفيذ الجلاء عن السودان فقبلها .

وقد أصدر مجلس الوزراء البريطانى فى ذلك اليوم بياناً قال فيه : إنه عهد بمهمة الجلاء عن السودان إلى الجنرال غردون ، وأنه سيكون فى الخرطوم ممثلا للحكومة الإنجليزية ، وكتب إليه اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا فى اليوم ذاته كتاباً يحتوى على التعليمات التى يجب عليه أن ينفذها ، وهى السفر بلا إبطاء إلى مصر ، وأن يضع تقريراً عن حالة السودان الحربية ، وعن الوسائل التى يحسن اتباعها لسلامة الحاميات المصرية والجاليات الأوروبية ، وعن خير

---

(١) عدد ١٠ يناير سنة ١٨٨٤

الوسائل للجلاء عن السودان ، مع الاحتفاظ بثغوره الحربية ، وإدارتها تحت السيادة المصرية ، وأن يتلقى التعليمات فى هذا الصدد من وكيل انجلترا السياسى فى مصر (السير افلن بارنج) ، وأن يتولى أيضاً القيام بالمهام الأخرى التى ترغب الحكومة المصرية إسنادها إليه ، ويكون ذلك بوساطة السير افلن بارنج (اللورد كرومر) .

ويقول الكولونل شايى لونج بك Chaille' Long bey ان مهمة غردون الحقيقية هى بسط الفوضى والخلل فى السودان ، وأن يسهل على انجلترا الاستحواذ عليه بعد انفصاله عن مصر ، ويقول أيضاً ابراهيم فوزى باشا ، وقد كان زميلا لغردون : « إن مأمورية غردون منحصرة فى هذه السطور ، وهى أن حكومة جلالة الملكة كان غرضها أن يمهد غردون السبيل لوقوع تلك البلاد فى مخالب الفوضى ، وبعبارة أخرى أن يقضى على نفوذ مصر فى تلك الأرجاء »(١)

جاء غردون إلى القاهرة ، فى طريقه إلى السودان ، وقابل السير إفان بارنج ، ثم الخديو توفيق باشا ، وعينه الخديو بطلب من السير بارنج حكمداراً (حاكما عاما) للسودان ، وسلمه « الإرادة السنية » بذلك يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ، وأمرا آخر يتضمن مهمته ، ومحتواه : « إن الغرض من إرسالكم إلى السودان هو إرجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار إلى مصر ، وذلك مع حفظ النظام فى البلاد بإعادتها إلى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصرى ، ولنا مزيد الثقة أنكم تتخذون أفضل الطرق لإتمام هذه المهمة طبق رغبتنا »(٢)

وبعد أن تلقى هذه الأوامر ، سافر من العاصمة إلى السودان بطريق النيل ،

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر لابراهيم باشا فوزى ج ١ ص ٢٩٥

(٢) السودان لنعوم بك شقير ص ٢١٣

واصطحب معه الكولونيل استيوارت (باشا)[١] وابراهيم فوزى بك (باشا)[٢]، وأذاع وهو فى طريقه إلى الخرطوم أنه موفد لإرجاع الجيش المصرى إلى مصر، وترك السودان لأهله ، ووصل إلى الخرطوم يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤

وإنك لتلمح من مقارنة هذا التاريخ بتأليف وزارة نوبار ، مبلغ السرعة التى سارت بها انجلترا فى تنفيذ قرار إخلاء السودان ، فإن هذه الوزارة قد تألفت فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ ، ولم تكد تمضى أيام معدودات على تأليفها ، حتى اختارت الحكومة البريطانية غردون باشا لتنفيذ قرار الإخلاء ، وسافر هذا على عجل من انجلترا إلى مصر ، ومنها إلى السودان ، فوصل الخرطوم فى ١٨ فبراير ، وفى ذلك ما يدل على خطة مدبرة أرادت انجلترا أن تنفذها بكل سرعة

ولما وصل غردون إلى الخرطوم ، جمع مجلسا من الأعيان وكبار التجار ، وأمر بتلاوة أمر توليته ، ثم خاطب المجتمعين ، واعداً إياهم بإقرار العدل والطمأنينة ، وأشار إلى الكولونيل استيوارت ، قائلا إنه وكيله ، وطلب إليهم طاعته ، ولم يشر بكلمة إلى أحد من الضباط المصريين الذين كانوا يحيطون به

وأخذ يستميل إليه الأهلين بالعدل بينهم ، ورفع الضرائب عنهم ، على أنه مع ميله إلى العدل ، لم يكن على كفاية للاضطلاع بأعباء منصبه الكبير ، وبخاصة فى ذلك الوقت العصيب ، وكان سريع التأثر سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب فى آرائه ، متناقضاً فى أعماله ، يرضى يوما عن أحد من الناس ، ثم يغضب عليه فى الغد ، والعكس بالعكس ، وقد أمر منذ وصوله بفتح أبواب المدينة ، والخروج منها والدخول إليها من غير حرج ، فأخذ رسل المهدى

---

(١) هو الكولونيل ستيوارت الذى كلفته الحكومة البريطانية سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال الذهاب إلى السودان ودراسة شؤونه ، فذهب إليه فى نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، وقدم تقريره فى فبراير سنة ١٨٨٣ ، وانتهى فيه إلى القول بعجز المصريين عن حكم السودان ، وهو التقرير الذى على أساسه قررت الحكومة البريطانية وجوب إخلاء مصر للسودان ، وقد قتل الكولونيل ستيوارت فى سبتمبر سنة ١٨٨٤ كما سيجىء بيانه

(٢) مؤلف كتاب (السودان بين يدى غردون وكتشنر) ، وقد طلب غردون من الخديو قبل ذهابه إلى السودان الانعام عليه برتبة اللواء

وجواسيسه يترددون على الخرطوم، ويتعرفون أخبارها، وينقلونها إلى المهدى، ويصلون بينه وبين أتباعه فيها، لكى يمهدوا له طريق الزحف عليها

وعين ابراهيم فوزى باشا قومندانا للجنود المصريين، وفرج بك الزينى (باشا) قومندانا للجنود السودانيين، والسعيد بك الجيعاتى قومندانا للجنود الباشبوزوق، وحسين بك الشلالى وكيلا له، وأنعم على كل منهم برتبة باشا، وشرع فى تدبير خطة الجلاء.

وبعث إلى المهدى قبل وصوله إلى الخرطوم يدعوه إلى الكف عن القتال، ويمنحه لقب أمير كردفان، وأرسل إليه مع الكتاب هدية من نوع الهدايا التى تقدم لمشايخ الأعراب، كالبنش وغيره[1]، فلم يكترث المهدى لكتابه، ورد إليه الهدية، وأرسل إليه يرفض منحته، ويدعوه إلى اعتناق الإسلام.

وكانت سياسة غردون مما زاد فى نفوذ المهدى، فقد أذاع منشوراً بين أهالى الخرطوم، قال فيه: إن السودان قد فصل عن مصر فصلا تاما، وقد جئتكم حاكما عاما عليه، فجعلت محمد أحمد أميراً على كردفان، وألغيت الأوامر الصادرة بمنع الرقيق، وتنازلت عن المتأخر من الضرائب سنتين فى المستقبل.

فإبلاغ الأهلين تصميم الحكومة على فصل السودان، والتعظيم من أمر المهدى، قضى على هيبة الحكومة، وعلى الأمل فى استردادها نفوذها، فصرف عنها قلوب الأهلين، وجعلهم ينضمون إلى الجانب الأقوى، وهو جانب المهدى، فكأن غردون جاء ليزيد من نفوذه وسلطانه، ويقضى على نفوذ الحكومة المصرية القضاء الأخير.

وسار المهدى فى بسط سلطانه بخطوات واسعة، فلما شعر غردون بخرج مركزه، وأنه لاشك واقع هو وجنوده فى قبضته، عدل عن سياسة المسالمة، واستعد للدفاع والمقاومة، وأرسل يطلب المدد من مصر، ولكن بعد أن ضاعت الفرصة، وسبق السيف العذل.

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر لابراهيم فوزى باشا ج ١ ص ٢٦٧

طلب غردون مدداً من الجند ، فرفض طلبه ، ثم طلب تعيين الزبير باشا حاكما للسودان ، لما كان له فيه من النفوذ والعصبية ، ولأنه الرجل الذى يستطيع مقاومة المهدى ، وكان مقيما وقتئذ فى مصر ، ولكن اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا رفض هذا الطلب ، وأبلغ السير افلن بارنج قرار الرفض ، وكان الرفض معقولا من وجهة النظر الإنجليزية ، لأن تعيين الزبير حاكما للسودان كان يمكن أن يؤدى إلى إخماد ثورة المهدى ، وعودة السلطة إلى الحكومة المصرية ، وهذا ما لم تكن تعمل له انجلترا ، وعبثاً أعاد غردون طلبه ، وألح فى إجابته ، وأشار إلى أن لا سبيل إلى إنقاذ الحاميات المصرية وإمكان إرسالها إلى مصر دون مساعدة الزبير باشا ، وأن أرواح الجنود والموظفين تكون هدفاً للخطر بغير هذه الوسيلة ، ولكن الحكومة الإنجليزية أصرت على الرفض ، وتركت غردون وشأنه ، وكانت حجتها الظاهرة فى ذلك أن الزبير باشا من كبار تجار الرقيق ، وأن عودته تساعد على إعادة هذه التجارة ، مما تعترض عليه جمعيات منع الاتجار بالرقيق فى انجلترا ، وهى حجة واهية ، لأن المهدى لم يكن أقل من الزبير إباحة للاسترقاق ، فترك السودان فى قبضته معناه إعادة الاتجار بالرقيق بأوسع معانيه ، ولكن السبب الحقيقى هو ما قدمنا ، وهو سعى الحكومة الإنجليزية فى تقليص ظل السلطة المصرية عن السودان ، ولذلك عارضت فى أن ترسل مصر أى مدد إلى السودان ، وعارضت أيضاً فى تعيين الزبير باشا حاكما له ، ولم يكن ثمة شك فى أن مصلحة مصر كانت تقضى بتعيينه حاكما عاماً للسودان ، وكان بلا جدال أقدر من غردون على مقاومة المهدى ، لكن السياسة الإنجليزية حالت دون إصدار الحكومة قراراً بتعيينه لهذا المنصب تحقيقاً لمطامعها فى السودان

وكانت نتيجة هذه الخطة المدبرة تمكن المهدى من فتح الخرطوم وسائر مدن السودان ، ووقوع الحاميات المصرية والموظفين المصريين وعائلاتهم وأولادهم وذويهم وأتباعهم فى قبضة الثوار ، فأعملوا فيهم السيف بلا رحمة ولا شفقة ، حتى بلغ عدد ضحايا هذه المجازر نحو ثمانين ألف نسمة .

انتصار الثورة فى السودان الشرقى

تحرجت الحالة فى السودان الشرقى على أثر قرار إخلاء السودان الذى كان بمثابة إغراء للثورة على متابعة انتصاراتها ، واشتد حصار الدراويش لسواكن وطوكر وسنكات ، رغم استبسال حامياتها فى الدفاع عنها ، وصارت مهددة بالسقوط .

هزيمة الجنرال بيكر باشا

فى معركة التيب الثانية (٤ فبراير سنة ١٨٨٤)

أنفذت الحكومة المصرية حملة من عساكر الريف إلى سواكن لإنجاد طوكر وسنكات ، وعهدت بقيادتها إلى الجنرال فالنتين بيكر باشا قومندان البوليس ، فجاءت الحملة سواكن فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، وأخذت أهبتها للزحف .

وفى أوائل فبراير تقدم بيكر باشا من ترنكنات[1] بقوة من ثلاثة آلاف وستمائة مقاتل ، وساروا قاصدين طوكر ، فما أن وصلوا إلى آبار (التيب) حتى فاجأهم الدراويش يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨٤ ، وانقضوا عليهم بجموعهم الحاشدة ، وأمعنوا فيهم ذبحاً وتقتيلا ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المصرى ، بعد أن منى بخسارة فادحة ، إذ قتل من رجاله نحو ٢٣٠٠ ، ومن ضباطه ٩٢ ضابطاً ، وعادت فلول الجيش منهزمة إلى سواكن ، وتسمى هذه الواقعة واقعة التيب الثانية ، تمييزا لها عن واقعة التيب الأولى التى حدثت فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وتسمى أيضاً واقعة (طوكر) .

كان لهذه الهزيمة صدى أليم فى مصر ، ودل وقوعها على أن القيادة الإنجليزية

---

(١) ميناء على شاطىء البحر الأحمر جنوبى سواكن ، ولذلك تسمى الواقعة فى بعض المراجع واقعة (ترنكنات) وهى ميناء طوكر .

لم تحسن تدبير الخطط الحربية ، إذ كانت هذه الواقعة ، بعد كارثة (شيكان) ، ثانية الوقائع الكبرى التى أصيب فيها الجيش المصرى بالهزيمة ، بقيادة القواد البريطانيين فى حروب السودان الأولى ، وكانت هذه الهزيمة نذيراً بسقوط سنكات وطوكر ، بعد أن انقطع عنهما المدد .

سقوط سنكات — ٨ فبراير سنة ١٨٨٤

ومقتل البطل محمد توفيق بك

كان محمد توفيق بك يتولى محافظة سواكن ، وظل يدافع عن (سنكات) دفاع الأبطال ، ولكن الثوار شددوا عليها الحصار ، وانقطع المدد عنها ، فاستبسل وسائر رجال الحامية فى الدفاع ، واحتملوا أهوال الحصار ، حتى نفدت مؤونتهم ، فعانوا ألم الجوع ، واضطروا إلى أكل لحوم البغال والحمير ، والكلاب والقطط ، وأكلوا الجلود ، واضطروا إلى مضغ أوراق الشجر ، تسكيناً لسعار الجوع ، فلما صاروا إلى هذه الحال ، جمعهم البطل توفيق بك ، وقال لهم : « إن بقينا هنا هلكنا من الجوع ، وإن سلّمنا لهؤلاء الأشقياء لم نضمن السلامة ، وإن سلمنا عشنا عيشة يهون معها الموت ، فلم يبق لنا إلا أن نخرج من الاستحكام ، ونتخذ طريق سواكن ، فإن لحقوا بنا حاربناهم حتى ظفرنا ، أو متنا مشرفين »[1]

ففعلت هذه الكلمات فى نفوس الضباط والجند فعل السحر ، وأجمعوا على العمل برأى قائدهم الباسل ، فلما كان يوم الجمعة ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ (١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٠١) ، اعتزموا الخروج من المدينة ، فأحرقوا مخازن البارود والجبخانة ، وسدوا أفواه المدافع ، وخرجوا من سنكات ، وعددهم

(١) السودان لنعوم بك شقير ص ٢٠٨

لا يزيد عن ستمائة نفس ، من جند ورجال ونساء وأطفال ، فساروا نحو ميل ونصف حتى أتوا مضيقاً وعراً ، فوجدوا الدراويش كامنين فيه ، فنظم توفيق بك صفوف الجنود على هيئة مربع ، وجعل النساء والأطفال فى الوسط ، ليقيهم شر القتال ، وأخذ الجند فى رمى الدراويش بالرصاص ، فقتلوا منهم ٥٧ رجلا ، ولكن الدراويش أطبقوا عليهم من كل جانب ، وأثخنوا فيهم حتى قتلوهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم سوى خمسة رجال ، بينهم قاضى سنكات ، وثلاثون امرأة ، وقُتل البطل توفيق بك فى هذه المعركة ، وقتل سائر أبطال الحامية من الضباط والجند ، فخلدوا أسماءهم فى سجل الشرف والفخار .

ومما يؤثر عن البطل توفيق بك أنه حين اشتد الحصار على سنكات أرسل خطاباً إلى حكمدار السودان ، يفيض نبلا وشهامة ، قال فيه : « إن حالة الأطفال والشيوخ جرحت فؤادى ، وأقلقت خاطرى ، بعد نفاد المؤن ، ولم نبق على حمار أو جمل ، وكنا بانتظار إمدادكم إيانا حتى الآن ، ولم نر منكم معينا ولا نصيرا ، وقد ضقت ذرعا ، وفرغ معين الصبر ، ومع ذلك فإنى أصبر بعد إرسال هذا الكتاب يومين اثنين فقط ، فإذا لم أر منكم عضدا فلا بد لى من إتمام واجبات العسكرية بشرف ، فأطلق المدافع وأهدم الاستحكامات ، وأهجم ورجالى على الأعداء فنقاتلهم ونناوشهم الحرب بكل قوانا قصد النجاة والفوز بالحياة ؛ فإن أسعدنا الحظ فبه ، وإلا فإنا نموت موت الأبطال بعد القيام بالواجبات العسكرية وشرف الجندية ، تخليداً لذكر مصرنا العزيزة ، ومحافظة على حقوقنا المقدسة »(١)

قالت (الأهرام) تعليقا على هذا الكتاب المجيد : « هذا هو الكتاب الأخير الذى بعث به توفيق بك الشجاع ، ولما لم يجد معينا ولا مغيثا أنجز ما وعد ، ومات شهيداً عزيزاً ، وهذا البطل الكريم ما كان جنديا ولا ضابطا بل صرف معظم سنه فى التدريس ، ومع ذلك فقد فعل أفعالا عجز عنها مشاهير

(١) الأهرام عدد ١٥ فبراير سنة ١٨٨٤

الضباط وكبار القواد ، وكان فى حياته معززاً مكرما ، ومات فقيراً محترما يذكر بالخير » .

احتلال الانجليز سواكن

لم تكد الحكومة المصرية تقرر إخلاء السودان حتى بادرت انجلترا إلى تنفيذ خطتها فى احتلال ما تتخلى عنه مصر ، ففى فبراير سنة ١٨٨٤ على أثر هزيمة بيكرباشا ، احتل الأميرال هويت Hewett سواكن ، وجعل نفسه قومندانا للثغر ، وبلغ من استهانة انجلترا بالخديو توفيق بعد إذ أقرها على إخلاء السودان ، أنها لم تبلغه نبأ هذا الاحتلال إلا بعد وقوعه ، وجاء هذا الاحتلال مكذبا لمزاعم انجلترا حينما طلبت إخلاء السودان بحجة أن لا سبيل إلى المحافظة عليه ، فإذا لم يكن من سبيل للاحتفاظ به فما بالها تضع يدها على أهم مواقعه وتستقر فيها ؟

وقد احتجت تركيا على هذا الاحتلال ، فأجابها اللورد دفرين سفير انجلترا بالأستانة بتاريخ ٦ مارس سنة ١٨٨٤ بأن حوادث السودان اضطرت الحكومة البريطانية إلى اتخاذ بعض الوسائل الوقتية لحماية ثغور البحر الأحمر ، ولكنها عازمة عند ما تعود السكينة أن لا تعمل شيئاً بغير مشورة الباب العالى .

سقوط طوكر — ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤
وحملة الجنرال جراهام الأولى

أنفذت قيادة الجيش البريطانى حملة بقيادة الجنرال جراهام ، لإزالة الأثر السيء الذى أحدثته هزيمة بيكر باشا فى معركة التيب الثانية ، وكانت مهمة هذه الحملة الدفاع عن سواكن وإنقاذ حامية طوكر ، التى كان الدراويش يحاصرونها ، فجاءت الحملة إلى سواكن فى أواخر فبراير ، وفى غضون ذلك سقطت طوكر فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤ قبل وصول النجدة إليها .

واقعة التيب الثالثة

٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤

على أن الحملة بقيادة الجنرال جراهام هاجمت جموع الدراويش فى (التيب) يوم ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤ (غرة جماد الأول سنة ١٣٠١)، فانتصرت عليهم وأوقعت بهم، وأجلتهم عن آبار التيب.

واقعة طماى الثانية

١٣ مارس سنة ١٨٨٤

ثم هاجمت جموع عثمان دقنه فى (طماى)، فظفرت بهم يوم ١٣ مارس سنة ١٨٨٤، وأخلى عثمان دقنه طماى، واعتصم بالجبال، وقد كان الظن أن تستمر الحملة فى زحفها بعد هذا الظفر، ولكنها عدلت عن الزحف، إذ أمرت الحكومة البريطانية الجنرال جراهام بالعودة إلى مصر، فكان ذلك إيذاناً بوقف الحملة، وإغراء لعثمان دقنه بالاستخفاف بقوة الحكومة

فعاد جراهام إلى مصر فى ابريل، ولحقه جيشه، وتبين أن الغرض من هذه الحملة إنما هو اطمئنان الإنجليز على مركزهم فى سواكن فحسب

وفى ١٠ مايو سنة ١٨٨٤ عين الخديو بإيعاز من الإنجليز الميرالاى البريطانى تشرمسايد بك Chermside محافظا لسواكن[1]

اتساع نفوذ المهدى

كان لقرار إخلاء السودان أثر كبير فى اتساع نفوذ المهدى، فإن هذا القرار هو بمثابة تسليم من الحكومة المصرية بعجزها عن إخماد الثورة، واعتراف

(١) مجموعة الأوامر العالية سنة ١٨٨٤ ص ١٠٢

منها بقوة المهدى وانتصاراته، وقد انتهز هو هذه الفرصة، فاخذ يفتح عواصم السودان، ويمد نفوذه شرقاً وغرباً وجنوباً، ويحاصر الخرطوم

فقد سقطت (سنكات) فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤، و (طوكر) فى ٢٤ منه كما تقدم بيانه، والحلفاية (شمالى الخرطوم) فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤، والقضارف بمديرية كسلا فى ٢١ ابريل سنة ١٨٨٤.

ثم سقطت (بربر) فى ١٩ مايو سنة ١٨٨٤، وقتل فيها من جنود الحامية المصرية نحو ١٥٠٠ مقاتل، وكان لسقوطها تأثير كبير فى الموقف، ووقع أليم فى النفوس، لأنه بسقوطها انقطع الأمل فى إنقاذ الخرطوم، وصارت فى حصار محكم، إذ كانت بربر هى طريقها إلى سواكن أو إلى كروسكو (أنظر موقعها على الخريطة ص ٩٢)، وظل غردون مرابطاً فى الخرطوم، يأمل أن يصله المدد، ويبذل الجهد فى تنظيم الدفاع عن المدينة.

حملة انجليزية لانقاذ غردون، وانخفاقها

١٨٨٤ — ١٨٨٥

وفى غضون ذلك شعرت الحكومة الإنجليزية بأن تركها الجنرال غردون باشا محصوراً فى الخرطوم، وامتناعها عن نجدته، رغم صيحات الاستغاثة التى كان لا يفتأ يرسلها كلما اشتد به الحصار، يعرضها للوم اللائمين من الجمهور البريطانى، والرأى العام الأوروبى، فاعتزمت إرسال نجدة من الجيش الإنجليزى لإنقاذه، وعهدت بقيادتها إلى الجنرال اللورد ولسلى[1] Wolsley، وكان عددها تسعة آلاف مقاتل، وسميت (حملة الإنقاذ)، واشترك معها الجيش المصرى بقوته، وأبلى فيها البلاء الحسن، وفى ذلك يقول اللورد ملنر[2]: « إن الجيش المصرى الذى اشترك فى حملة النيل قد أبدى من الصفات الحربية ما لم يكن يظنه أحد فى البداية »

---

(١) الذى كان قائداً للحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٨٢

(٢) فى كتابه (انجلترا فى مصر) England in Egypt ص ٩٩ طبعة سنة ١٩٢٠

وصل ولسلى إلى مصر يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ، وأخذ يعد المعدات لتنظيم الحملة .

لم يكن الغرض من إنفاذ هـــذه الحملة إعادة سلطة الحكومة المصرية إلى السودان ، وإنما كان لإنقاذ حياة غردون فحسب[١] ، ويتبين لك حقيقة مقصد الحكومة الإنجليزية من التعليمات التى أصدرتها إلى الجنرال ولسلى ، وهذا نصها :

« إن الغرض الأساسى من الحملة إنما هو إنقاذ الجنرال غردون والكولونل ستيورت من الخرطوم ، فمتى تم هذا الغرض فلا تباشروا حركات عدائية أياً كانت ، والحكومة تعتمد عليكم فى أنكم لاتتقدمون جنوباً إلا بقدر مايلزم لإدراك هذا الغرض[٢] »

وكان غردون باشا ذاته يأبى أن تأتيه النجدة على يد الجيش المصرى ، ويبدو ذلك من خطابه الذى أرسله إلى قائد الحملة فى وادى حلفا ، وقال فى ختامه : « لا تدعو العساكر المصرية تأتى إلى هنا ، استلموا قيادة الوابورات منهم وأخرجوهم منها فإنه لا فائدة منهم[٣] »

أخذت هذه الحملة تسير بخطوات بطيئة ، فقد ابتدأت وحداتها تصل وادى حلفا فى سبتمبر ، ولم يصلها الجنرال ولسلى إلا فى اليوم الخامس من اكتوبر سنة ١٨٨٤ . ووصل إلى (دنقلة) فى ٣ نوفمبر ، أى بعد انقضاء شهر من وصوله إلى وادى حلفا ، ولم يصل (كورتى) إلا فى ١٦ ديسمبر ، فاتخذها معكسره العام ، وأخذ يستعد لمتابعة السير جنوباً ، فاستقر الرأى على إنفاذ حملتين تسير إحداهما بقيادة الجنرال السير هربرت ستيوارت Herbert Stewart فى طريق الصحراء إلى (المتمة) ، وتسير الثانية بقيادة الجنرال ارل Earl فى طريق النيل قاصدة بربر[٤]

---

(١) كوشرى — المركز الدولى لمصر والسودان ص ٣٢٥

(٢) السودان لنعوم بك شقير ص ٢٦٩

(٣) السودان لنعوم بك شقير ص ٢٧٣

(٤) أنظر هذه المواقع والتى تليها بالخريطة ص ٩٢

واقعة (أبى طليح)

١٧ يناير سنة ١٨٨٥

تحركت حملة الصحراء من (كورتى) فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٨٤ ، بقيادة الجنرال السير هربرت ستيورت ، واستولت على آبار (الجقدول) فى صحراء بيوضة ، يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٥ ، وحصنت مواقعها بها .

ثم زحفت جنوباً ، فالتقت بجموع الدراويش فى آبار (أبى طليح) ، القريبة من (المتمة) ، يوم ١٧ يناير سنة ١٨٨٥ ، وهناك نشبت واقعة كبيرة انتهت بهزيمة الدراويش ، بعد أن حصدتهم نيران المدافع حصداً

وقد تجدد الأمل بعد هذه الواقعة فى إنقاذ غردون وحامية الخرطوم ، ولكن تأخر الحملة فى الزحف قد بدد هذا الأمل كما سيجىء بيانه .

واستمرت الحملة فى زحفها حتى وصلت إلى (المتمة) فاحتلتها ، وبلغت (القبة) جنوبى المتمة وتحصنت فيها ، وفى أثناء زحفها التقت بجموع الدراويش ، فظفرت بهم ، وجرح الجنرال ستيوارت جرحاً مميتاً ، وتولى القيادة من بعده الجنرال السير شارلس ويلسن .

واتصلت الحامية فى القبة برسل غردون الذين جاءوا على البواخر النيلية من الخرطوم ، ولبثوا بالقرب من (شندى) أربعة أشهر ينتظرون المدد ، فأدرك الجنرال السير شارلس ولسن من حديثهم خطورة الحالة ، وأن الخرطوم على وشك السقوط ، فانفصل بقوة من الجند أقلتهم الباخرتان (بردين) و (تل حوين) ، قاصدين الخرطوم ، فوصل إلى مقربة منها ، شمالى الحلفاية ، يوم ٢٨ يناير ، وهناك علم بسقوطها ومقتل غردون ، فعاد أدراجه إلى (المتمة) ، بعد أن أصلاه المهديون ناراً حامية فى الطريق ، وأبلغ اللورد (ولسلى) القائد العام للحملة فى (كورتى) نبأ سقوط الخرطوم ، ومقتل غردون ، فأرسله هذا بالبرق إلى لندن ، وأخذ ينتظر تعليمات الحكومة البريطانية .

ويقول ابراهيم باشا فوزى، الذى كان وقتئذ أسيراً فى الخرطوم، إنه لو أبحرت الحملة إلى الخرطوم مباشرة منذ وصولها إلى المتمة لما سقطت الخرطوم، ولكنها بقيت فى المتمة خمسة أيام، فأضاعت فرصة إنقاذها[1]، فتأخرها فى الزحف كان السبب الأكبر فى إخفاق «حملة الإنقاذ»، وهذا التأخير يرجع إلى خطأ القيادة فيها.

واقعة كربكان

١٠ فبراير سنة ١٨٨٥

وفى خلال هذه الحوادث سار الجنرال إرل قائد حملة النيل من (كورتى)، يقود نحو ثلاثة آلاف من الجنود الإنجليزية ونحو خمسمائة قارب تقل الجنود المشاة، أما الفرسان والمدفعية فإنهم ساروا حيال القوارب فى الضفة الغربية للنيل، وسارت القوة المصرية بقيادة البكباشى أحمد سليمان فى الضفة الشرقية، وتقدمت الحملة على هذا النحو مسيرة ثمانية أيام، حتى بلغت معقل الدراويش فى (كربكان)، بالقرب من (أبو حمد)، فانضمت القوة المصرية إلى القوة الإنجليزية، وهاجمت القوة المشتركة معقل الدراويش بكربكان يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٨٥، وفازت عليهم فوزاً مبيناً، واستولت على المعقل وقتلت جميع من فيه من الدراويش، وأصيب الجنرال ارل فى هذه المعركة برصاصة قضت عليه، وقد أبلى البكباشى أحمد سليمان والجنود المصريون بلاء حسناً فى هذه الواقعة.

وبقيت القوة معسكرة فى (كربكان) أسبوعين، ثم قفلت راجعة إلى دنقلة، على اثر قرار الحكومة البريطانية العدول عن الزحف، بعد سقوط الخرطوم ومقتل غردون، فارتدت الحملة جميعها إلى كورتى ثم إلى دنقلة، ورجعت إلى مصر فى يونيه سنة ١٨٨٥.

---

(١) ابراهيم باشا فوزى — السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ٢ ص ٤٢

وعلى أثر إخفاق هذه الحملة استقال الجنرال السير افلن وود باشا Sir Evelyn Wood سردار الجيش المصرى من منصبه فى ابريل سنة ١٨٨٥ ، وكان الظن أن يسند هذا المنصب إلى قائد مصرى كفء مثل عبد القادر باشا حلمى ، بعد أن ثبت من التجارب أن إسناد القيادة العليا للجيش إلى سردار انجليزى كانت نتيجته انحلال الجيش المصرى ، وتبدد قوته ، وإصابته بالهزائم المتوالية فى حروب السودان ، ولكن السياسة البريطانية أبت إلا أن يحل سردار انجليزى بدل السردار المستقيل ، فعين الجنرال السير فرنسيس جرنفل باشا Sir Francis Grenfell سرداراً للجيش فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨٥ .

غردون فى الخرطوم

أما ما كان من أمر غردون فى الخرطوم أثناء سير حملة الإنقاذ ، فقد حاول إجلاء الدراويش عن (الحلفاية) ، لكى يخفف ضغطهم على المدينة ، وأنفذ إليها حملة من أربعة آلاف مقاتل ، ولكن الدراويش أوقعوا بهم يوم ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ ، فى واقعة عرفت (بواقعة الشرق) ، وتقدموا لحصار الخرطوم من الشمال والجنوب والشرق ، فاشتدت الحالة بالحامية وبسكان المدينة ، لانقطاع المدد ، ونفاد الميرة والمؤونة ، وبقيت الحرب سجالا بين الحامية والدراويش ، ودافعت الحامية دفاع المستميت عدة أشهر .

مقتل الكولونل ستيوارت

وفى أثناء الحصار أوفد غردون وكيله الكولونل ستيوارت باشا إلى مصر بطريق النيل ، لإبلاغ الحكومة حالة الخرطوم ، واستعجال المدد ، فسافر على ظهر الباخرة « عباس » إلى أن وصل إلى شلال (ودقمر) ، فرسا ومن معه على جزيرة صغيرة تجاه قرية (هبة) ، وهناك أدركه الدراويش ، فقتلوه ومن معه (سبتمبر سنة ١٨٨٤) .

سقوط الخرطوم ، ومقتل غردون

٢٦ يناير سنة ١٨٨٥

وكان المهدى قد جعل عامله عبد الرحمن النجومى أحد قواد جيشه قائداً على جموع الدراويش المحاصرة للخرطوم ، فلما استبطأ فتحها تحرك من الأبيض بجميع جيشه ، زاحفاً عليها ، معتزما الاستيلاء عليها عنوة ، فحلّ بأبى سعد فى اكتوبر سنة ١٨٨٤ ، يقود جيشاً لجباً ، يبلغ عدده نحو ستين ألف مقاتل ، وبقى يستعد للحرب حتى غاية المحرم سنة ١٣٠٢ (نوفمبر سنة ١٨٨٤) ، لأنه لم يكن يرغب الحرب فى شهر المحرم ، فلما انتهى الشهر كتب إلى غردون فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ، يدعوه إلى التسليم ، فأجابه غردون متهدداً متوعداً ، فأمر المهدى رجاله بضرب الخرطوم من كل الجهات ، فدافع عنها جنود الحامية دفاع الأبطال وردوا الدراويش غير مرة ؛ ولكن اشتداد الحصار أدى إلى نفاد المؤونة ، ففشت المجاعة فى الخرطوم وأم درمان ، واشتد الجوع بالجنود والأهلين ، حتى صار أهلها يموتون جوعا فى الطرقات .

وحاول غردون أن يفك الحصار عن الخرطوم لإحضار القوت إليها ، فخرجت قوة من الحامية يوم أول يناير سنة ١٨٨٥ ، ولكنها ارتدت منهزمة ، بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، وخرجت قوة أخرى فى فجر يوم ٣ يناير ، واشتبكت بالدراويش وأصلتهم ناراً حامية ، ولكن الحصار ظل مضروباً على الخرطوم وأم درمان ، ونفد الزاد فى المدينتين .

وفى اليوم الخامس من شهر يناير سقطت أم درمان تحت تأثير الجوع ، فكان سقوطها نذيراً بسقوط الخرطوم ، وانقطع الأمل فى وصول المدد الذى كان ينتظره غردون حتى آخر لحظة ، وأرسل إليه المهدى فى ٦ يناير ينصح له بالتسليم ، وينبئه بأن لا أمل فى وصول المدد إليه ، وأعاد الطلب فى ٧ يناير ، ولكن غردون أجابه بالرفض ، وقد دب اليأس فى قلوب الجند والأهلين بعد

سقوط أم درمان ، لتوقعهم اقتحام الدراويس خطوط الدفاع ، فضلا عن اشتداد المجاعة ، ولكن غردون كان لا يفتأ يشدد عزائمهم ، ويتطلع إلى الأفق ، منتظراً وصول حملة الإنقاذ من الشمال ، ولكن الحملة كانت تسير ببطء كما تقدم بيانه .

واشتد الجوع بالحامية والأهلين حتى هزلت أجسام الجنود ، واصفرت ألوانهم ، وغارت عيونهم ، وكانوا بعد أن نفد الزاد قد شرعوا يأكلون لحوم الخيل والبغال والحمير والكلاب والجلود وألياف النخيل .

وطوق الدراويش المدينة ، ولم يبق من خطوط الدفاع عنها سوى (الخندق) ، وكان يدافع عنه جنود الحامية دفاع المستميت ، بقيادة فرج باشا الزينى ، وكانت الأنباء قد وصلت إلى المهدى من الشمال بانتصار الحملة الإنجليزية فى (أبى طليح) ، ثم وصولها إلى المتمة قاصدة الخرطوم ، فاعتزم فتحها عنوة قبل وصول المدد .

ففى فجر يوم الإثنين ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ (٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢) هجم الدراويش على الخرطوم هجوما عاما ، فدافع الجند وضباطهم عن الخندق دفاعا مجيداً ، ولكن الدراويش اقتحموه بجموعهم الحاشدة ، ودخلوا الخندق ثم المدينة ظافرين ، وأعملوا السيف فى الجند والأهلين ، وأوقعوا بهم ذبحاً وتقتيلا ، بلا رحمة ولا شفقة ، واستمرت المجزرة حتى الضحى ، وبلغ عدد من قتلوا يوم الواقعة من سكان الخرطوم نحو ٢٤ ألف نسمة[1] ، عدا من قتل من الجند ، وعدتهم ثمانية آلاف ، وقتل غردون فى سرايه بالخرطوم وهو يرقب حركات القتال ، وذهب الدراويش برأسه إلى المهدى ، ولم يكن راضياً عن قتله ، ولا عن إسراف أشياعه فى الذبح والتقتيل ، فقد استباحوا المدينة ، وجعلوها فريسة للنهب ، ومسرحاً للفظائع ، من قتل الرجال والأطفال ، وسبى النساء ،

---

(١) إحصاء ابراهيم باشا فوزى الذى حضر حصار الخرطوم وسقوطها — السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ٢ ص ٣ .

واستعباد الأحياء من أهلها ، ووقع فى هذا اليوم المشئوم وفى الأيام التالية من الأهوال ، ما تقشعر منه الأبدان .

كان لسقوط الخرطوم ومقتل غردون دوىّ كبير فى مصر وفى العالم ، إذ كان إيذاناً مروّعا بانحلال الامبراطورية المصرية فى السودان ، والقضاء على الحكم المصرى فى أصقاعه ، كما كان أوج السلطة للمهدى وأشياعه .

حملة جراهام الثانية

فى سواكن سنة ١٨٨٥

كان مما اقترحه اللورد ولسلى على حكومته بعد إخفاق حملته وسقوط الخرطوم إرسال قوة إنجليزية إلى سواكن لسحق عثمان دقنه ومد سكة حديدية من سواكن إلى بربر ، تمهيداً لاستئناف الزحف على الخرطوم ، فأنفذت الحكومة البريطانية الجنرال جراهام إلى سواكن مرة ثانية ، وحشدت له جيشاً من مصر وانجلترا ، وانضم إلى حامية سواكن فبلغت القوات التى تحت قيادته بها ١٣٠٠٠ مقاتل .

ولما اكتملت الحملة فى سواكن زحفت بقيادة الجنرال جراهام على جموع عثمان دقنه فى تل هشيم[1] ، واشتبكت وإياهم يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٨٥ ، ففازت عليهم وهزمتهم .

وفى ٣ ابريل ظفرت بهم فى طماى ، وأخلاها عثمان دقنه ، وشرع الجنرال جراهام فى مد السكة الحديدية من سواكن فى طريق بربر ، ولكن الحكومة البريطانية عدلت بعد ذلك عن مهاجمة المهدى ، فأمرت جراهام بالكف عن مد السكة الحديد . والعودة إلى مصر ، فعاد إليها مع حملته فى مايو سنة ١٨٨٥ .

---

(١) على بعد ٧ أميال من سواكن .

إخلاء دنقلة

وتراجع حدود مصر الجنوبية

كان من نتائج سقوط الخرطوم أن طلبت انجلترا من الحكومة المصرية جعل حدودها الجنوبية فى (وادى حلفا) ، وأرادت بذلك أن تؤيد إخلاء مصر للسودان ، فأذعنت الحكومة المصرية وأخلت دنقلة ، وقررت فى يونيه سنة ١٨٨٥ جعل حدودها الجنوبية فى (كوشة) (أنظر موقعها بالخريطة ص٩٢) ، وفصلت البلاد التى بين أسوان ووادى حلفا عن مديرية إسنا وجعلتها محافظة تحت الأحكام العسكرية وأسمتها (محافظة الحدود) .

وفاة المهدى

وتراجع المهدية

أصيب المهدى فى يونيه سنة ١٨٨٥ بحمى خبيثة من نوع الالتهاب السحائى الشوكى ، لم تمهله بضعة أيام حتى أودت بحياته ، وهو فى أوج قوته ، وكانت وفاته يوم ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٥ (٩ رمضان سنة ١٣٠٢) ، وتولى حكم السودان من بعده خليفته عبد الله التعايشى .

كانت وفاة المهدى أول نذير بإخفاق الثورة المهدية ، إذ كان هو بلا مراء روحها وقوامها ، وكانت الانتصارات التى نالها قد رفعت شأنه ، وزادت من مهابته فى النفوس ، فكانت شخصيته هى دعامة الدولة المهدية المترامية الأطراف التى أسسها فى السودان ، وقد ولى الأمر من بعده خليفته عبد الله التعايشى ، ولم يكن له المقام الذى كان للمهدى ، ولا نفوذه المعنوى ، وكان ينقصه كثير من المزايا والصفات التى اجتذب بها المهدى قلوب أنصاره ، كالأناة والحزم والدهاء ، فالتعايشى يشبه أن يكون وارثاً لملك كبير تعوزه الكفاية للاضطلاع بأعبائه ، ووقع الخلف بينه وبين كبار أنصار المهدى ، وأخذ يقرب إليه من يرى فيهم

الإخلاص لشخصه ، وينكل بمن يخشى منهم مزاحمته أو الخروج عليه ، وفى عهده كثرت المظالم ، ووقفت حركة التجارة ، ثم انتشرت الأوبئة والمجاعات ، فمات منها مئات الألوف من الأهلين ، فلا غرو أن كانت ولايته إيذاناً بتداعى الدولة المهدية ، ولم يكن يطمع إلا فى استبقاء نفوذه فى البلاد التى دانت للمهدى ، ولكن الإنجليز أخذوا يبالغون فى قوته ، ويظهرون القلق من اعتزامه غزو مصر ، لكى يسوغوا بقاءهم فى مصر لحمايتها كما يقولون من غزوات الدراويش

المعارك فى السودان الشرقى والجزيرة

سقطت (القلابات) فى مارس سنة ١٨٨٥ ، قبل وفاة المهدى

وسقطت (كسلا) عاصمة مديرية كسلا على عهد التعايشى ، وقد بدأ حصارها فى عهد المهدى ، ثم استولى عليها الدراويش فى يوليه سنة ١٨٨٥ ، بعد أن دافعت عنها حاميتها دفاع الأبطال بقيادة أحمد عفت بك مدير كسلا ، وقد قتله الدراويش وقتلوا معاونيه بعد سقوط المدينة بأمر عثمان دقنه عامل التعايشى فى السودان الشرقى

وسقطت سنار فى اغسطس سنة ١٨٨٥ بعد دفاع مجيد

وكان عثمان دقنه يحاول فتح سواكن ، ولكنها امتنعت عليه

واقعة الجميزة

٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨

وظلت الحرب سجالا فى هذه الناحية ، وقد نشط الدراويش فى سبتمبر سنة ١٨٨٨ ، لمهاجمة سواكن ، فنزلوا إلى الجنوب الغربى من طابيتى (الشاطه) و (الجميزة) اللتين تحميان آبار المياه لحامية سواكن ، وفى اكتوبر من تلك السنة شرعوا فى ردم هذه الآبار . فردهم عنها الجنود المصريون ، وأرسلت الحكومة المصرية والحكومة الإنجليزية ، المدد إلى سواكن لكسر هجوم

الدراويش ، وذهب إليها السردار جرنفل باشا ، وتولى بها قيادة الجند ، وفى فجر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨ خرج الجيش المصرى بقيادته من سواكن ، وزحف على معقل الدراويش ، والتحم وإياهم فى معركة شديدة عرفت بمعركة الجميزة ، وقاتلهم ببسالة وثبات ، إلى أن أوقع بهم وأجلاهم عن معقلهم ، وشتت شملهم .

المعارك والمناوشات فى مديرية دنقلة

١٨٨٥ — ١٨٨٩

احتل الدراويش مدينة (دنقلة) فى أغسطس سنة ١٨٨٥ عقب إخفاق حملة اللورد ولسلى ، وجلاء القوات المصرية والإنجليزية عنها ، ووقعت مناوشات بمديرية دنقلة فى ختام سنة ١٨٨٥ ، لم يكن الباعث عليها من جانب الدراويش سوى الرغبة فى النهب والسلب ، فقد حاصروا قلعة (كوشة) واستولوا عليها ، ثم استولوا على (جنس) على بعد ثلاثة أميال منها .

واقعة جنس

٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥

على أن القوات المصرية ما لبثت أن كرت على الدراويش باشتراك القوة الإنجليزية ، فهاجمت مواقعهم فى كوشه وجنس يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ (٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٣ هـ) ، فاحتلت كوشة عنوة ، وهاجمت فى اليوم نفسه معقل الدراويش فى جنس ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة انتهت بإجلاء الدراويش عنها ، واستولى المصريون على ما كان بها من أسلحة وذخائر ، وقد أبلى الجنود والضباط المصريون البلاء الحسن فى هذه الواقعة ، وأثنت الأوامر العسكرية على بكباشى المدفعية المصرية حسن افندى رضوان (باشا) والبكباشى أحمد افندى فهمى من ضباط أركان الحرب .

وجعلت الحكومة آخر حدود مصر الجنوبية بعد هذه الواقعة (وادى حلفا)، ورجع إليها الجند من الجنوب فى ابريل سنة ١٨٨٦ ، فكان هذا القرار مغرياً التعايشى بمناوأة القوات المصرية، بعد أن أفزعته واقعة (جنس) ، فأخذ ينفذ رجاله لغزو القرى الواقعة على الحدود ، واحتل الدراويش (سرس)[1] فى أواخر سنة ١٨٨٦ .

واقعة سرس

٢٨ ابريل سنة ١٨٨٧

وسادت السكينة منطقة جنوبى وادى حلفا إلى ابريل سنة ١٨٨٧ ، وفى ٢٨ ابريل من تلك السنة استرد المصريون (سرس) بعد واقعة عنيفة نشبت بينهم وبين الدراويش

وفى يونيه من تلك السنة عاد الدراويش إلى احتلالها ، واتخذوها قاعدة للغزو والنهب ، وكان التعايشى قد أنفذ عبد الرحمن النجومى أحد قواد المهدى المشهورين إلى دنقلة ليستعد لغزوة مصر

وانتهت سنة ١٨٨٧ وأوائل سنة ١٨٨٨ دون أن تحصل معارك ذات شأن ، وأنشأت الحكومة من قبيل الاحتياط مخافر عسكرية على الحدود الجنوبية التى خططتها بعد إخلاء السودان

وفى ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٨ قرر مجلس الوزراء تقسيم مديرية إسنا إلى قسمين ، الأول سمى (مديرية الحدود) بين وادى حلفا وجبل السلسلة ، ومركزها أسوان ، وأضيف القسم الواقع شمالى جبل السلسلة إلى مديرية قنا[2] ، وتقرر جعل المنطقة الواقعة بين أسوان ووادى حلفا منطقة عسكرية تحت إمرة الكولونل ودهوس باشا Wodehouse وعين « قومندان الحدود بوادى حلفا » .

---

(١) جنوبى وادى حلفا وعلى بعد ٣٣ ميلا منها (انظر الخريطة ص ٩٢)

(٢) الوقائع المصرية عدد ١٦ مايو سنة ١٨٨٨

موقعة خور موسى باشا

اغسطس سنة ١٨٨٨

وفى اغسطس سنة ١٨٨٨ هاجم الثوار قلعة (خور موسى باشا) على شاطىء النيل جنوبى شلال وادى حلفا[1] هجوما عنيفاً ، واحتلوا الجزء الجنوبى من القلعة ، فأجلاهم عنها المصريون بعد قتال شديد أبلوا فيه البلاء الحسن بقيادة البكباشى عبد الغنى فؤاد (باشا) ، وسادت السكينة عقب هذه الواقعة ، وبقى الدراويش بعد هذه الكسرة يرابطون فى (سرس)

معركة أرجين

يوليه سنة ١٨٨٩

وفى مايو سنة ١٨٨٩ تحرك عبد الرحمن النجومى بجيشه من دنقلة قاصداً غزو الجهات الجنوبية من مديرية الحدود ، فبلغ جنوبى (أرجين) فى أول يوليه ، والتقى فى اليوم التالى (٢ يوليه سنة ١٨٨٩ - ٤ ذى القعدة سنة ١٣٠٦) بالجنود المصرية ، واشتبك الجمعان فى معركة انتهت بهزيمة الدراويش ، وقتل منهم فيها نحو ٩٠٠ مقاتل ، وجرح النجومى فى خلال القتال ، وكان للمرحوم البكباشى حسن رضوان (باشا) الفضل الكبير فيما ناله الجيش المصرى من النصر فى هذه المعركة

وقد ساءت حالة الدراويش بعد هذه الواقعة ، واشتد بهم الضنك والجوع وضعفت قوتهم المعنوية .

---

(١) وهذا الخور هو نهاية إقليم دنقلة شمالا

واقعة طوشكى — ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩

ومقتل عبد الرحمن النجومى

كان عبد الرحمن النجومى هو الذى يتولى قيادة شراذم الدراويش فى تلك المناوشات ، فسيرت إليه الحكومة قوة من الجند ، بقيادة السردار جرنفل باشا ، وطلب إلى النجومى التسليم فأبى ، فزحفت القوة المصرية ، حتى التقت بالنجومى ورجاله فى طوشكى[١] يوم ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ (٦ ذى الحجة سنة ١٣٠٦) ، فدارت الدائرة على الدراويش فى تلك الواقعة ، وقتل فيها النجومى ، وبلغ عدد قتلى الدراويش فيها ١٥٠٠ رجل ، واستولى المصريون على كمية كبيرة من البنادق والمزاريق وخمسين علماً من أعلام الثوار ، وبلغت خسائر المصريين ٢١ قتيلا و ١٣١ جريحاً مات أربعة منهم[٢]

وقد أبلى الجنود والضباط المصريون فى هذه الواقعة بلاء حسناً ، وامتاز منهم البكباشى على بك حيدر وحسن أفندى رضوان (باشا) من ضباط المدفعية ، ومصطفى أفندى رمزى من ضباط أركان الحرب

وامتدت سلطة الحكومة المصرية بعد واقعة طوشكى إلى (سرس) جنوباً ، فرابطت بها أورطة من الجيش المصرى ، ورمم الجنود سكة الحديد بينها وبين وادى حلفا شمالا ، ولم تقم للدراويش بعد هذه الكسرة قائمة

ولما لهذه الواقعة من كبير الشأن وعظيم الأثر ، أقامت الحكومة فى عهد الخديو توفيق باشا ضريحاً كبيراً لشهدائها ، ركب عليه لوح تذكارى نقش به تاريخها ، وقد زار الخديو توفيق هذا الضريح فى رحلة له سنة ١٨٩١ ، تكريماً لأولئك الشهداء ، وتجد صورته أثناء هذه الزيارة بالصفحة ١٥٥ ، وتجد بالصفحة ١٥٧ صورة أخرى له فى هذه الرحلة وهو يعرض الأورطة المصرية بكورسكو .

---

(١) بالشاطىء الغربى للنيل ، وهى من بلاد مركز الدر بمديرية أسوان ، وتقع غربى كروسكو وشمالى وادى حلفا بغرب

(٢) عن تقرير وزارة الحربية المنشور بمجموعة المنشورات والقرارات سنة ١٨٨٩ ص ٦٩

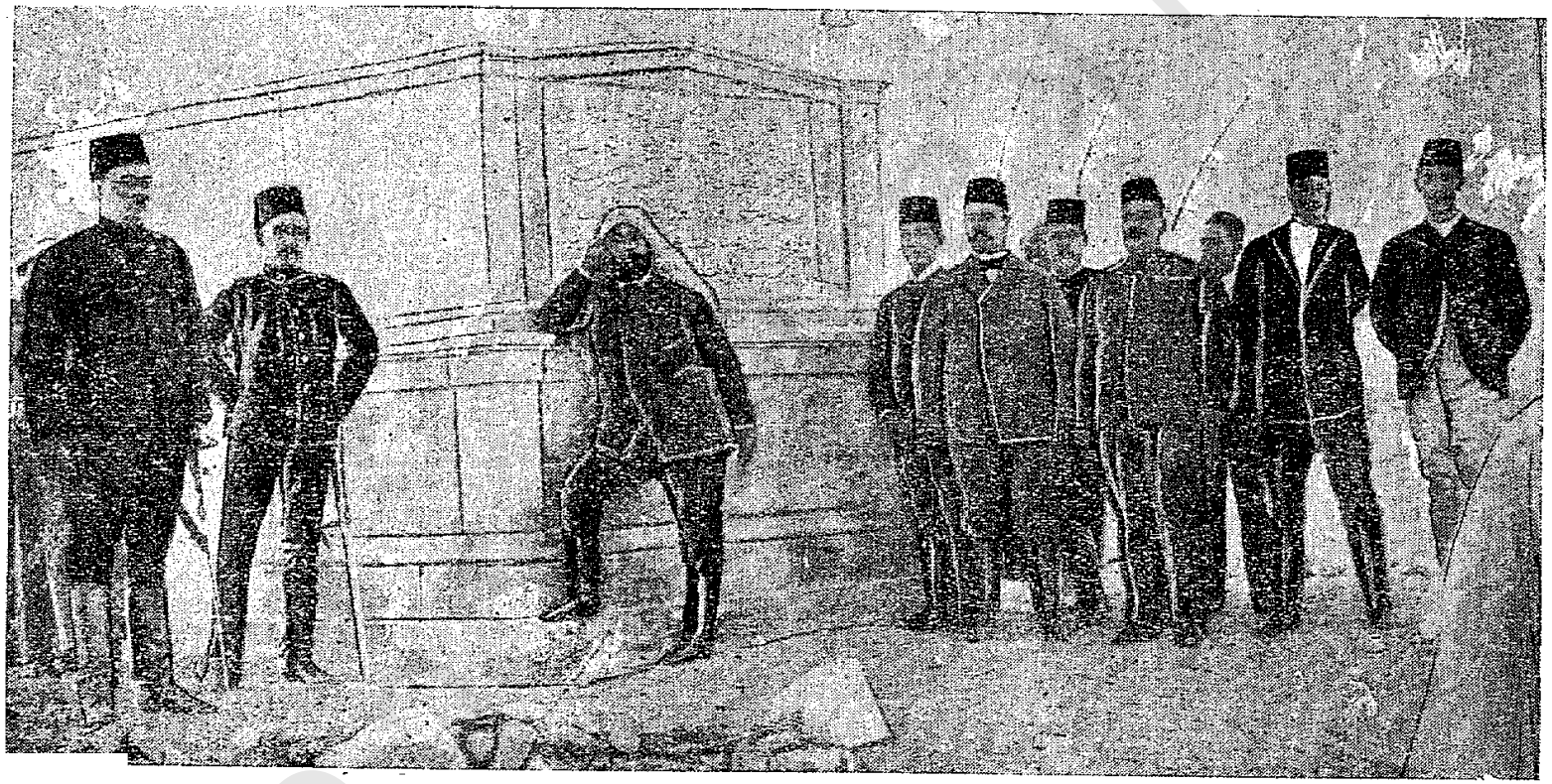

زيارة الخديو توفيق باشا لضريح شهداء واقعة طوشكى فى يناير سنة ١٨٩١ — انظر ص ١٥٤

وقد أخذناهما عن صورتين شمسيتين ، أهداهما إلينا حضرة صاحب العزة الضابط الوطنى العظيم الأميرالاى محمود حلمى اسماعيل بك

كان لمقتل النجومى أثر كبير فى أرجاء السودان ، لما كان له من المنزلة الرفيعة بين أتباع المهدى ، فهو بلا مراء أشهر قواده ، وقد ذاعت شهرته فى واقعة شيكان ، ثم فى سقوط الخرطوم ، فلا غرو أن جزع التعايشى ورجاله ، حينما علموا بمصرعه فى واقعة طوشكى ، لأنهم فقدوا فيه القائد الذى كانوا يعتمدون عليه فى المحافظة على كيان الدولة المهدية ، وقد أخذت هذه الدولة تتداعى بعد مقتل النجومى ، وكانت واقعة طوشكى مقدمة التفكك والانحلال .

واقعة طوكر

١٩ فبراير سنة ١٨٩١

كانت واقعة (طوشكى) ، وما ناله الجيش المصرى فيها من النصر ، حافزة للحكومة المصرية إلى محاربة الثوار فى السودان ، وبخاصة لما استفاض من الأنباء عن تذمر الأهلين من مظالم الحكم فى عهد التعايشى ، وما وقع من الخلف والانقسام بين أنصاره

وقد بدأت باسترداد (طوكر) ، فتحرك الجيش المصرى من (ترنكتات) قاصداً طوكر ، وكان مؤلفا من أربع أورط ، فوصل إلى (التيب) ، وتقدم منها قاصداً طوكر ، وكان عثمان دقنة ممتنعاً بجيشه فى بقعة تسمى (العفافيت) فى طريق طوكر ، فاشتبك بالجيش المصرى بين العفافيت وطوكر يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٩١ ، وكانت معركة شديدة استبسل فيها الجيش المصرى ، وأبدى من الشجاعة ما نوه به اللورد ملنر فى كتابه[1] ، وانتهت بهزيمة عثمان دقنه ، وفراره بفلول جيشه جنوباً ، واحتل الجيش المصرى معسكر الدراويش

---

(١) انجلترا فى مصر England in Egypt للورد الفريد ملنر ص ١٣٩ طبعة سنة ١٩٢٠ ، ويسمى هذه الواقعة معركة العفافيت

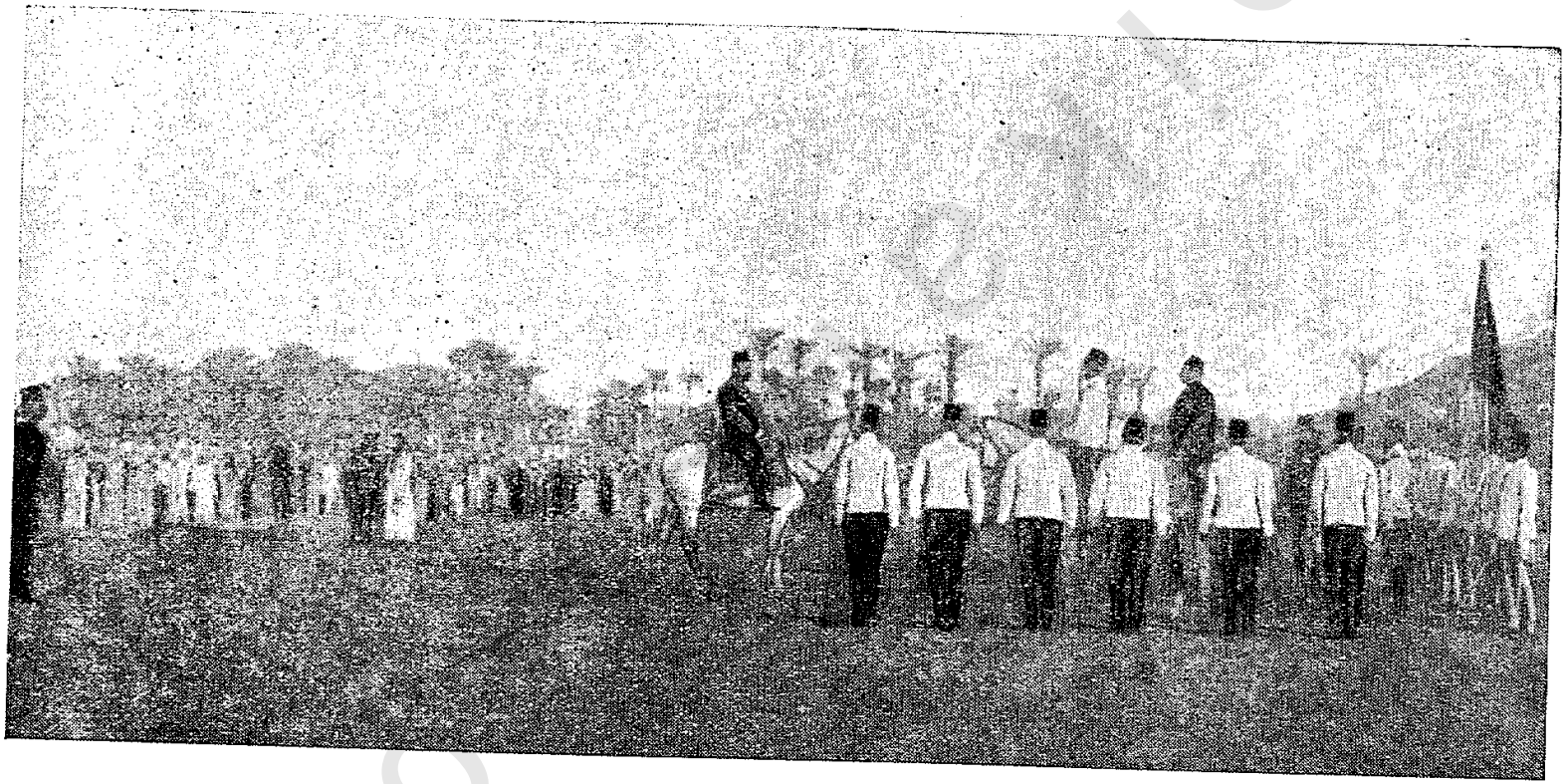

الخديو توفيق باشا يعرض الأورطة المصرية بكروسكو (يناير سنة ١٨٩١) — انظر ص ١٥٤

(هذه الصورة والصورة المنشورة بالصفحة ١٥٥ أهداها إلينا حضرة صاحب العزة الضابط الوطنى العظيم الأميرالاى محمود حلمى اسماعيل بك)

فى العفافيت ، فعادت بلاد طوكر إلى الحكومة المصرية ، بعد أن بسط الدراويش سلطانهم عليها سبع سنين

وهذه الواقعة تلى واقعة (طوشكى) فى أهميتها ، منذ سقوط الخرطوم ، وقد أظهر الجيش المصرى فى كلتيهما من الشجاعة والبسالة ما شهد له به الجميع ، وقد وقعت هذه المعركة فى أواخر عهد الخديو توفيق ، فكانت (طوكر) هى البلدة الوحيدة التى استردها الجيش المصرى فى عهده .

الحالة فى السودان أثناء حكم التعايشى

ساءت حالة السودان فى عهد حكم التعايشى ، وانتشرت المظالم والهمجية ، واشتدت المجاعة بالناس ، فمات الأهلون جوعا ، وكان اشتداد المجاعة عام ١٨٨٩ ، وفتكت الأمراض بالناس فتكا ذريعا ، وكان ذلك من علامات زوال حكم التعايشى فى السودان ، بعد أن أدى إلى نشر الخراب فى نواحيه ، قال « سلاطين » باشا فى هذا الصدد ، وقد شهد الحكم المصرى وحكم الدراويش : « لا يكاد المرء يشهد فى التاريخ الحديث بلادا أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ثم انقلبت إلى حالة أقرب ما تكون إلى الهمجية » ، وذكر أن خمسة وسبعين فى المائة على أقل تقدير من مجموع سكان السودان قد ماتوا فى عهد حكومة المهدى والتعايشى إما بالحرب وإما من الجوع أو فتك الأمراض القتالة ، ولم يكن قد بقى من سكانه سوى خمسة وعشرين فى المائة لم يكونوا فى الحقيقة أحسن حالا وأفضل عيشاً من الرقيق .